المحاضرة الثالثة:

الأدب في العصر الوسيط/ المرحلة الثالثة

الرّثاء:

فنّ أدبيّ وجدانيّ ، يُعبِّر عن حزن الإنسان وتأسفه على فقيده ووصف رزئه وفجيعته به ، وهو ـ على كثرته ـ ليس بذلك الدفق والعمق الذي كنّا نلمسه عند شعرائنا في العصور الذهبية السابقة ، ولا نجد فيه ـ الاّ ما ندر ـ تلك الفلسفة التي رأيناها في قصيدة أبي العلاء المعريّ : ((غير مُجد في ملتي واعتقادي)) ...

وقبل النظر في رثاء الأحباب والأصحاب ، والمقربين من الأنساب ، وأخيار الناس ، نقف عند رثاء المدن الزائلة وبكاء الدول البائدة التي توالت عليها النكبات والفجائع والمصائب ، وذهب ضحيتها الآلاف... وقد أخذت بغداد ـ مهد العلم والأدب ودرّة الحضارة ـ من هذا الرثاء والبكاء قسطاً وافراً ، **فهذا شمس الدين محمد بن أحمد الكوفي (ت 675هـ)** يبكي عليها بكاءً حاراً ويرثيها بعدة قصائد تُعبر عن صدق المعاناة تجاه هذه المدينة التي ضربتها أيدي التتر سنة (656) للهجرة واحالتها إلى خرائب يَبَاب ، ففي احدى هذه القصائد يذكر في مطلعها أصحابه واصدقاءه الذين ودعهم إلى غير رجعة ، وتمنى الموت بعدهم : (للحفظ)

إنْ لـــم تقرّح ادمعي اجفاني مـــن بعد بُعدهم فَمَا اجْفَانـي

إنسان عيني مذْ تناءت داركم مـــا راقـهُ نظر إلى إنســانِ

يـــا ليتني قَدْ متّ قبل فراقكم ولساعة التوديـــع لا أحياني

ما لي وللأيـــام شتّتَ صرفها حـالي ، وخلّانـــي بـلا خلّانِ

ويتعجب الشاعر ـ بعد تطوافه ببغداد ـ من تبدّل الوجوه ، وغياب الأهل والجيران ، وما حلَّ بها ، بعدما جالت فيها معاول الهدم وألسنة النيران : (للحفظ)

ما للمنازل أصبحت لا أهلُهـا أهلي ولا جيرانُهـا جيراني

وحياتكم : ما حلَّها من بعدكم غيرُ البلى والهدمِ والنيـرانِ

ويقف الشاعر مذهولاً أمام الدار الخَرِبة ـ وهي ليست وقفة الشعراء على اطلال محبوباتهم الظاعنات ـ ويسالها عمّا أصابها ، وما نالها ودهاها ، وكيف تحوّلت إلى هذه الحالة المؤلمة بعد عزٍّ ورخاء ، وشموخ وغباء ، وقوّة وبأساء : (للحفظ)

ولقد قصدتُ الدارَ بعدَ رحيلِكـم ووقفتُ فيهـــا وقفةَ الحيرانِ

وسـألتـها ، لكنْ بغـير تكلّـمٍ فتكلّمتْ ، لكنْ بغيرِ لســـانِ

ناديتُها : يا دارُ ؛ مـــا صنعَ الأُلى كانُـوا هُـم الأوطارُ فــي الأوطانِ
أينَ الذيـــنَ عهدتُــم ، ولِعزِّهــم ذُلّاً تخــرُّ معاقـــــــــد التيجــانِ؟
كانوا نجومَ من اهتدى فعليهـــم يبـــكي الهُـــدى وشعائــر الإيمــانِ

وتردُّ الدار على سؤاله بجواب لطيف فيه عظة وعبرة وتأسٍّ وسلوة : إنّ أهوال الدهر وحوادثه أفنتهم مثلما أفنت صاحب الإيوان :

قالت : غدوا لمَّا تبدَّد شملهم وتبدَّلـوا مـــــــن عزّهـم بِهَوَانِ
أفنتهم غيرُ الحـوادث مثلمــا أفنتْ قديمـــاً صــــاحب الإيوانِ

ولم يفصّل الشاعر حديثه عن طبيعة الخراب والدمار ، وانمّا انشغل بوصف حزنه على فراق أحبابه ، وألمه الذي أصابه بعد رحليهم ، ولم يستطع أنْ يتخلّص ـ وهو في موقف الأسى والأسف ـ من الصنعة اللفظية والمعنوية ، والاتّكاء عليها ، ولاسيمّا استخدام الجناس والطباق وردّ الصدر على العجز .

لقد كانت النكبة التي حلّت ببغداد عظيمة ، والفاجعة التي داهمتها كبيرة

والمصيبة التي وقعت على قاطنيها رهيبة أذهلت الكثيرين وأنطقتهم قصائد رثائية مبكية...

إنَّ ما قيل في رثاء بغداد كثير ، وقد ألّف أبو الخير سعيد بن عبدالله الدهلي (ت749هـ) كتاباً بعنوان : (تفتيت الأكباد في واقعة بغداد) .

ولم تكن بغداد المدينة الوحيدة التي ابتليت بهذه النكبة أو المصيبة ، بل شاركتها مدن إسلامية أخرى في ديار الشام والمغرب العربي والأندلس ، فهذا ملك حلب ثم دمشق الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد ـ وكان شاعراً أدبياً ـ يُؤخذ سنة 659 للهجرة أسيراً بيد التتر مع جمع من أقاربه ورجاله وتُضرب اعناقهم بالسيوف غدراً ، وقد قال الأبيات الآتية حينما رأى حلب ، وهي خاوية على عروشها ، وألسنة النيران تعمل في بيوتها المهدمة : (للحفظ)

ناشدتـــك الله يـــا هطّالة السُّحب إلاّ حملت تحيـــاتي إلـــى حلـــبِ
لا عذرَ للشوق أنْ يمشي على قدر ماذا عسى يبلغ المشتاق في الكتبِ
احبابنــا لـــو درى القلب بأنّكُـــم تدرون مـــا أَنَــا فيـه لذَّ لي تعبي
لكن اصعب مـــا القـــاه من ألـمِ انّـي أمـوتُ ولا تدري الأحبـةُ بـي

وتجدر الإشارة إلى أَنَّ الشعراء المشارقة لم ينفردوا برثاء المدن والبكاء عليها ، بل شاركهم الشعراء في الأندلس والمغرب العربي ...فقد استهدف الطامعون في أوربا ديار المغرب العربي بعد استباحتهم فردوس العرب في الاندلس ، واخذوا يغيرون على مدنها ويحتلونها ، وبكى الشعراء هذه المدن ، منهم الشريف المفضل افيلال في رثائه مدينة تطوان حينما دخلها الفرنسيون سنة 1276للهجرة ، حيث قال : (للحفظ)

**يــــا دهــرُ قُلْ لي : عَلامَهْ		كسـرتَ جمــعَ السّلامَـهْ ؟**

**خفضــتَ قَـــــدْرَ مَقَــام		للرّفـــــعِ كــان علامــهْ**

**ملّكتــــــــــهُ لعُــــــــدَاةٍ		ليســــتْ تســاوي قُلَامــهْ**

**فالدّيـــــنُ يبكـــي بدمـــعٍ		يحكيــه صَــوْب الغَمَامــهْ**

**علــــــى مساجــد اضحتْ		تُبــــاع فيهـــا المُدَامـــــهْ**

**تطــوانُ مـــــا كنـــــتِ إلاّ		بين البــــــــلادِ حمامــهْ**

**أو كَمُحَـــيَّـا عــــــــروس		عـــلاهُ فــي الخَـدِّ شامَــهْ**

**فقتِ بهـــــاءً وحُسْنَــاً		فَاسَـــاً ومِصْـرَ وشَامَــهْ**

**رمَـــــــاكِ بالعينِ دهــرُ		ولا كـزرقـــــا اليمامــهْ**

**ففـرَّقَ الأهــــــل حتـــى		لـــــم يبـقَ إلاّ ارْتسـامــهْ**

وإذا انتقلنا إلى الألوان الأخرى في فنّ الرثاء ، نرى رثاء العلماء والأدباء ، والبكاء على رحليهم ، والتأسّف على غيابهم ، يأخذ نصيباً كبيراً من شعر الشعراء ، وهذا دليل واضح على اهتمام الناس آنذاك ، ولاسيّما الدارسين ، بالعلوم والآداب ، وتعظيم القائمين عليها ، وتبجيل المنتسبين إليها ، فهذا مثلاً أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت745هـ) المشهور في النحو والتصريف والتفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وتواريخهم ، والمعروف بنظم الشعر الجيد ، يقف الشعراء إجلالاً له منشدين قصائدهم في رثائه ، منهم تلميذه الوفي خليل بن أيبك الصفدي (ت764هـ) في قصيدته التي يقول فيها :

**مـــاتَ أثيـرُ الدّيـنِ شيـخُ الوَرَى		فاستعـرَ البَـارِقُ واستعبـرا**

وهي قصيدة طويلة ، تناول فيها منزلة هذا العالم الأديب ، وخسارة الأمّة بفقده وأشار إلى عدد من مؤلفاته القيمة في صنوف المعرفة المختلفة وفائدتها الكبيرة في التعليم ، منها قولهُ : (للحفظ)

**تفسيرُهُ «البحر المحيطُ» الـذي		يُهـدي إلـى وارده الجـوهـرا**

**فـــــوائد مـــــن فضلـــهِ جَمَّة		عليـــهِ فيهـــا نعقدُ الخنصرا**

**وكـــانَ ثَبْتَـــاً نقلـــهُ حجّـــــة		مثلُ ضياءِ الصبح إذْ أسفرا**

**ورحلـــة فــي سُنّةِ المصطفى		أصـدقُ مـن يُسمع إنْ خَبَّرا**

**لـــه الأسانيـدُ التـي قــد علتْ		فاستقلتْ عنها سوامي الذُّرا**

**ســـاوى بهـــا الأحفادُ أجدادَهم		فَاَعْجبْ لماضٍ فاتهُ مَنْ طرا**

وشــاعراً فـــي نظمــــهِ مُفْلِقاً　　　كــم حــرَّرَ اللفـظَ وكــم حبّرا

ولم تكن منازل العلماء الأعلام أدنى من منازل الحاكمين من ملوك وأمراء بل كانت تفوقها ، وتعلو عليها ؛ لأنّهم رموز بارزة ، لهم خدمة جليلة في تنوير العقول ، وتهذيب النفوس ، وتقويم المنآد الفاسد من العادات والتقاليد ، ولذلك لا نمرُّ بديوان شاعر فيه مراثي لهؤلاء العلماء ... وهكذا لو تتبعنا الدواوين وأحصينا ما فيها من مراث إلى جانب المجاميع الشعرية وكتب التراجم ، لتشكّلَ لدينا سفر كبير يندر أنْ نجد مثله في العصور السابقة.

ولم يكن حظ الملوك كثيراً من مراثي الشعراء إذا ما قيس بمراثي العلماء ، منها ما قاله الشاعر صفي الدين الحلي في رثاء أحد الملوك :

كيفَ جَرّعْتَني الحَميمَ مـــن الحُزْ　　　نِ ، وقـد كنـتَ لـي صديقاً حَميمَا

نِمْتَ عن حاجتي ، فأحدثت عندي　　　لتنـــائيــكَ مُقْعِـــداَ ومُقيمَـــــا

وَتَرَحْلَــتَ عَــن فِنائــي رِحيـــلا　　　صَيَّرَ الحُـــزنَ فـــي الفُـؤادِ مُقِيْمَا

لستُ انســاكَ والمَنيـةُ تُخفــــي　　　منكَ نُطْقَــاً عَذْبَـاً وصَوتـاً رَخيمَـــاً

كنــتُ أمّلــتُ أنْ تُشَيــّعَ نَعْشِـــي　　　وتُواري في التُّرْبِ عَظمي الرّميمَا

وتَوقَّعتُ أنْ أرُدّ بكَ الخَطْــــــــــــــبَ ، فأمسَى نَـواكَ خَطْبــاً جَسيمَا

قد تَبَوّأتَ قَاطِناً الخُلْــــــــــــــــدِ ، فأورثتَ في فُؤادِي الجَحيمَـــا

عَلَيْــكَ السَّـلامُ حَيَّـــــاً ، وَمَيْتَـاً　　　ورَضيعــا ، ويافِعـــاً ، وفَطيمـــاً

ويلقانا شعر كثير في هذه الحقبة في رثاء الزوجات والأبناء و الإخوان ، وهو يفيض حزناً ويطفح ألماً وحسرة ، لأنّه يعبّر عن قلوب مكدومة ونفوس مهدومة ، فهذا ـ مثلاً ـ أبو حيان الأندلسي (ت745هـ) يرثي زوجته زُمردة أحرّ الرثاء بقوله :

مـــــا لقلبـــي مقسّــمُ الأفـــكارِ　　　وكأنْ قـــد حشـي بجمـرة نــــارِ

قــد دهتنــي مـــن الزمانِ خطوب　　　ضاقَ عن حملِها جميل اصطباري

كانت أنسي في وحدتي واغترابي　　　ومنــامـي ويقظتـي وسفــاري

ونديمـي فـــي رحلتـي ومقامـــي　　　وزميلي في حجتي واعتماري

كنتُ أرجـــو بـأنْ تعيش وتبقـــى　　　حين سقمي تدور بي وتداري

لـــم تكنْ زوجـــةً ولكـن كـأَمٍّ وأنـا كابنهـا صغيـرُ الصِّغارِ

كانت الـــروحُ بينَ جنبيَّ راحتْ فحيـاتي صـــارتْ كثوبٍ معارِ

فسقى الله قبـرهـــا غيـرَ عاث وحبـــَاهـا بِدِيَمَـــةٍ مـدرارِ

ولنسمع إلى ابن الوردي في الأبيات الآتية من قصيدة ، وهو يصور معاناة ابنته من داء عضال ، كان يؤلمها أشدّ الألم ويؤذيها ويقضُّ مضجعها قبل أنْ تفيض روحها إلى بارئها :

فلـذة الكَبْـدِ التـي لمَّـا نـأتْ نَثَـرتْ منظـوم دمـــي دررا

كنـت أبكـي مـن تشكيهـا فمذ بعدت صـــار بـــكائي اكثرا

فجرى من دمعِ عيني ما كفى وكفى من روع بيني ما جرى

أبلغ الله تعالى مـــن روحها مـــن سلامـي نثر مسك أذفرا

وجزاهـــا الله عـــن آلامها مـن قـرى جنتـه خيـر قـرى

ونالَ الحيوان الأليف جزءاً من مراثي الشعراء ، ولاسيّما ذلك الحيوان الذي يتكئ عليه الإنسان في قضاء حاجاته وتسيير أعماله ، مثل شمس الدين بن محمد بن دانيال الموصلي (ت710هـ) الذي رثى بقصدتين إكديشه الذي مات بعد أنْ هزل وبلغ من العمر عتياً وأصبح عاجزاً عن العمل ، يقول في مطلع احداهما :

يا عينُ جودي بدمع منك منسجم وابكي علـى فقد إكديش لنـا هرمِ

ومنها :

قد كان عوني على ضعفٍ بهِ زمناً حتـى غدا زَمنـاً بالـويل ثـم عمـي

فبتُّ أبكـي لأيـــام لنـــا سلفـتْ لحفظ عهدي وما بالعهد مـــن قـدمِ

إنَّ الرفيـقَ ليبكي للرفيـقِ وقـد قالوا : المعارف بين الناس كالذممِ

لقد جاءت أغلب الصور في مراثي الشعراء ـ كما لاحظنا ـ ساذجة لا جدَّة فيها، والأفكار والمعاني مستقاة من مورد شعرائنا القدامى العظام الذي لا ينفد، وكنزهم الذي لا يفنى ...